

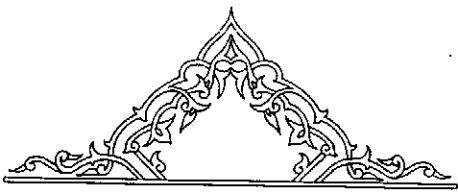
This item is provided to support UOB courses.

Its content may not be copied or emailed to multiple sites or posted to a listserv without the copyright holder's express written permission.

However, users may print, download, or email it for individual use for learning and research purposes only.

هذه الوثيقة متوفرة لمساندة مقرارات الجامعة.

ويمنع منعاً باتاً نسخها في نسخ متعددة أو إرسالها بالبريد الإلكتروني إلى قائمة تعميم بدون الحصول على إذن مسبق من صاحب الحق القانوني للملكية الفكرية لكن يمكن للمستفيد أن يطبع أو يحفظ نسخة منها لاستخدام الشخصي لأغراض التعلم والبحث العلمي فقط.

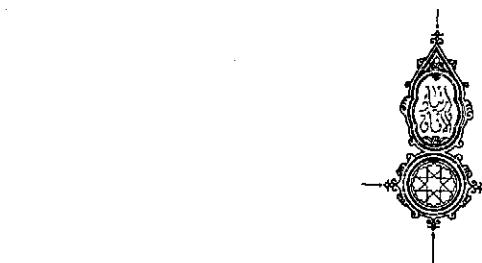
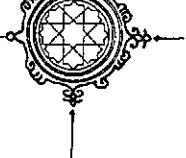
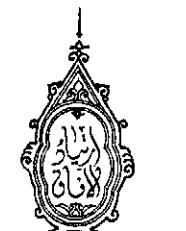


رحلة ابن فضالة

على بلاد الترك والروس والصقالبة

٩٢١

حرزها وقدمها: شاكر لعبي



رحلة ابن فضالء إلى بلاد الترك والروس والصقالبة (٩٢١) / أدب رحلات
أحمد بن فضالء مؤلف ، حرزها وقدم لها: شاكر لعبي [
الطبعة الأولى ، ٢٠٠٣ ، حقوق الطبع محفوظة]



المؤسسة العربية للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصناعي ، بنية عيد ، بن سالم ،
ص.ب: ١١-٥٤٦٠ ، العنوان البرقي: مركبالي ،
هاتف: ٦٣٢٢٠٧٩ ، فاكس: ٦٣٢٨٦٦ ، هاتفاكس: ٧٥٢٣٠٨ / ٧٥١٤٣٨

دار السويدى للنشر والتوزيع
ابوظبى ، ص.ب: ٤٤٨٠ ،
الإمارات العربية المتحدة ،
هاتف: ٦٣٢٢٠٧٩ ، فاكس: ٦٣٢٨٦٦

التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمان ، ص.ب: ٩١٥٧ ، هاتف: ٥٦٠٥٤٣٢ ، هاتفاكس: ٥٦٨٥٥٠١

E-mail: mkayali@jonet.com
الخطير وتصميم الغلاف :

مثير الشعري / مصر
الصف الصوتي :

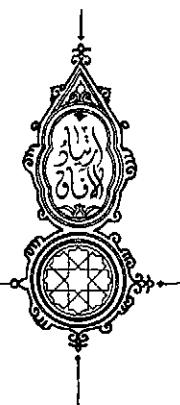
القرية الإلكترونية / أبوظبى + مطبعة الجامعة الأردنية / عمان
التنفيذ الطباعي :
سيكول للطباعة والنشر / بيروت ، لبنان

All rights reserved . No part of this book may be reproduced , stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publishers .

ISBN 9953-441-36-7
جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخرينه في نظام استعادة المعلومات أو
نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطى مسبق من الناشرين .

ISBN: 9953-441-36-7

يشرف على هذه السلسلة:
نور الحكمة



.. . «فَلِمَا كَانَ وَقْتُ الْعَصْرِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ جَاءُوا بِالْجَارِيَةِ إِلَى شَيْءٍ قَدْ عَمِلُوهُ مِثْلَ مَلِبَنِ الْبَابِ فَوَضَعُتْ رِجْلِيهَا عَلَى أَكْفَ الرِّجَالِ وَأَشْرَفَتْ عَلَى ذَلِكَ الْمَلِبَنِ ، وَتَكَلَّمَتْ بِكَلَامِ لَهَا فَأَنْزَلُوهَا ، ثُمَّ أَصْعَدُوهَا ثَانِيَةً ، فَفَعَلَتْ كَفَلَهَا فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى ، ثُمَّ أَنْزَلُوهَا وَأَصْعَدُوهَا ثَالِثَةً ، فَفَعَلَتْ فَعْلَاهَا فِي الْمَرَّتَيْنِ ، ثُمَّ دَفَعُوا إِلَيْهَا دِجَاجَةً فَقَطَعَتْ رَأْسَهَا وَرَمَتْ بِهِ وَأَخْذَنَا الدِجَاجَةَ فَأَلْقَوْهَا فِي السَّفِينَةِ . فَسَأَلَتِ التَّرْجِمَانَ عَنْ فَعْلَاهَا فَقَالَ : قَالَتِ فِي أُولَى مَرَّةٍ أَصْعَدُوهَا : هُوَ ذَا أَرَى أُبَيْ وَأُمَّيْ وَقَالَتِ فِي الثَّانِيَةِ : هُوَ ذَا أَرَى جَمِيعَ قَرَابَتِي الْمَوْتِي قَعُودًا . وَقَالَتِ فِي الْمَرَّةِ الْثَالِثَةِ : هُوَ ذَا أَرَى مُولَّا يَقَاعِدًا فِي الْجَنَّةِ وَالْجَنَّةِ حَسَنَةٌ حَسَنَةٌ خَضْرَاءٌ وَمَعَهُ الرِّجَالُ وَالْغُلَمَانُ وَهُوَ يَدْعُونِي فَأَذْهَبُوهَا إِلَيْهِ . فَمَرَوْا بِهَا نَحْوَ السَّفِينَةِ فَنَزَعَتْ سَوَارِينِ كَانَا عَلَيْهَا وَدَفَعْتُهُمَا إِلَى الْمَرْأَةِ الَّتِي تَسْمَى مَلِكَ الْمَوْتِ وَهِيَ الَّتِي تَقْتِلُهُمْ وَتَرْتَعِتْ خَلْخَالِينِ كَانَا عَلَيْهَا وَدَفَعْتُهُمَا إِلَى الْجَارِيَتَيْنِ الَّتِيْنِ كَانَتَا تَخْدِمَانِهَا وَهُمَا ابْنَتَا الْمَرْأَةِ الْمَعْرُوفَةِ بِمَلِكِ الْمَوْتِ . ثُمَّ أَصْعَدُوهَا إِلَى السَّفِينَةِ وَلَمْ يَدْخُلُوهَا إِلَى الْقَبْةِ وَجَاءَ الرِّجَالُ وَمَعْهُمُ التَّرَاسُ وَالْخَشْبُ وَدَفَعُوهَا إِلَيْهَا قَدْحًا نَبِيَّا فَغَنَتْ عَلَيْهِ وَشَرِبَتْهُ ، فَقَالَ لِي التَّرْجِمَانُ : إِنَّهَا تَوَدُّ صَوَاحِبَاتِهَا بِذَلِكَ ثُمَّ دَفَعَ إِلَيْهَا قَدْحَ آخَرَ فَأَخْذَتْهُ وَطَوَّلَتِ الْغَنَاءُ وَالْعَجُوزُ تَسْتَحْثِثُهَا عَلَى شَرِبِهِ وَالْدُخُولِ إِلَى الْقَبْةِ الَّتِي فِيهَا مَوْلَاهَا فَرَأَيْتُهَا وَقَدْ تَبَلَّدَتْ وَأَرَادَتْ دُخُولَ الْقَبْةِ فَأَذْخَلَتْ رَأْسَهَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ السَّفِينَةِ فَأَخْذَتِ الْعَجُوزَ رَأْسَهَا وَأَدْخَلَتِهَا الْقَبْةَ وَدَخَلَتْ مَعَهَا . وَأَخْذَ الرِّجَالُ يَضْرِبُونَ بِالْخَشْبِ عَلَى التَّرَاسِ لَثَلَا يَسْمَعُ صَوْتُ صَيَاخِهَا فَيَجْزِعُ غَيْرَهَا مِنَ الْجَوَارِيِّ وَلَا يَطْلَبُ الْمَوْتَ مَعَ مَوَالِيهِنَّ ثُمَّ دَخَلَ إِلَى الْقَبْةِ سَتَةُ رِجَالٍ فَجَامِعُوْا بِأَسْرِهِمُ الْجَارِيَةِ ثُمَّ أَضْجَعُوهَا إِلَى جَانِبِ مَوْلَاهَا وَأَمْسَكَ اثْنَانِ رِجْلِيهَا وَاثْنَانِ يَدِيهَا وَجَعَلَتِ الْعَجُوزُ الَّتِي تَسْمَى مَلِكَ الْمَوْتِ فِي عَنْقِهَا حَبْلًا مُخَالِفًا وَدَفَعَتْهُ إِلَى اثْنَيْنِ لِيَجْذِبَاهُ وَأَقْبَلَتْ وَمَعَهَا خَنْجَرٌ عَرِيشٌ النَّصْلُ فَأَقْبَلَتْ تَدْخُلَهُ بَيْنَ أَصْلَاعِهَا مَوْضِعًا مَوْضِعًا وَتَخْرُجَهُ وَالْرِجَالُ يَخْتَقَانُهَا بِالْحَبْلِ حَتَّى مَاتَتْ . »

من نص الرحلة ص 108

تَهْدِيْفُ هَذِهِ السَّلْسِلَةِ بَعْثَ وَاحِدٍ مِنْ أَعْرَقِ الْوَانِ الْكَتَابِيَّةِ فِي ثَقَافَتِنَا الْعَرَبِيَّةِ ، مِنْ خَلَالِ تَقْدِيمِ كَلاسِيْكِيَّاتِ أَدْبِ الرُّحْلَةِ ، إِلَى جَانِبِ الْكَشْفِ عَنِ نَصُوصٍ مَجْهُولَةٍ لِكِتَابٍ وَرِحَّالَةٍ عَرَبٍ وَمُسْلِمِينَ جَابُوا الْعَالَمَ وَدَوَّنُوا يَوْمِيَّاتِهِمْ وَانْطَبَاعَاتِهِمْ ، وَنَقْلُوا صُورًا لِمَا شَاهَدُوهُ وَخَبَرُوهُ فِي أَقْالِيمِهِ ، قَرِيبَةً وَبَعِيلَةً ، لَاسِيمًا فِي الْقَرْنَيْنِ الْمَاضِيَّيْنِ الَّذِيْنَ شَهَدُوا وَلَادَةَ الْاِهْتِمَامَ بِالْتَجْرِيْبِ الْغَرَبِيَّةِ لَدِيِّ الْشَّخْبِ الْعَرَبِيِّةِ الْمُشَفَّفَةِ ، وَمُحاوَلَةِ التَّعْرِفِ عَلَىِ الْجَمَعَاتِ وَالنَّاسِ فِي الْغَرَبِ ، وَالْوَاقِعُ أَنَّهُ لَا يَمْكُنُ عِزْلُ هَذِهِ الْاِهْتِمَامِ الْعَرَبِيِّ بِالْآخِرِ عَنْ ظَاهِرِ الْاِسْتِشَارَقِ وَالْمُسْتِشَرَقِيْنِ الَّذِيْنَ مَلَؤُوا دُرُوبَ الشَّرْقِ ، وَرَسَّمُوا لَهُ صُورًا سَتِّيَّةً مَجَلَّدَاتٍ لَا تُحْصِي عَدْدًا ، خَصْصُوصًا فِيِ الْلُّغَاتِ الإِنْكَلِيْزِيَّةِ وَالْفَرَنْسِيَّةِ وَالْأَمَّارِيَّةِ وَالْإِيطَالِيَّةِ ، وَذَلِكَ مِنْ مَوْقِعِهِمُ الْقَوِيِّ عَلَىِ خَارِطةِ الْعَالَمِ وَالْعِلْمِ ، وَمِنْ مَنْطِلَقِ الْمُسْتَأْثِرِ بِالْأَشْيَاءِ ، وَالْمُتَهَبِّيِّ لِتَرْوِيَجِ صُورَ عنْ «شَرْقُ الْفَلَلِيَّةِ وَلَيْلَةُ» تَغْذِيَ أَذْهَانَ الْغَرَبِيِّينَ وَمَخْيَالَتِهِمْ ، وَتُمْهِدُ الرَّأْيَ الْعَامَ ، تَالِيًّا ، لِلْغَزوِ الْفَكِّرِيِّ وَالْعَسْكَرِيِّ لِهَذَا الشَّرْقِ . وَلَعِلَ حَمْلَةِ نَابِلِيُّونَ عَلَىِ مَصْرَ ، بِكُلِّ تَدَاعِيَاتِهَا الْعَسْكَرِيَّةِ وَالْفَكِّرِيَّةِ فِيِ ثَقَافَتِنَا الْعَرَبِيَّةِ ، هِيِ النَّمُوذِجُ الْأَمْمَ لِذَلِكَ . فَقَدْ دَخَلَتِ الْمَطْبَعَةِ الْعَرَبِيَّةِ إِلَىِ مَصْرَ مَقْطُورَةً وَرَاءَ عَرْبَةِ الْمَدْفَعِ الْفَرَنْسِيِّ

موقعه الأدنى على هامش الحضارة الحديثة ، المتحسن على ماضيه التليد ، والثائق إلى العودة إلى قلب الفاعلية الحضارية .

إن أحد أهداف هذه السلسلة من كتب الرحلات العربية إلى العالم ، هو الكشف عن طبيعة الوعي بالأخر الذي تشكل عن طريق الرحلة ، والأفكار التي تسربت عبر سطور الرحلة ، والانتباها التي ميزت نظرتهم إلى الدول والناس والأفكار . فأدب الرحلة ، على هذا الصعيد ، يشكل ثروة معرفية كبيرة ، ومخزناً للقصص والظواهر والأفكار ، فضلاً عن كونه مادة سردية مشوقة تحتوي على الطريف والغريب والمدهش ما تقطته عيون تتجول وأنفس تتفاعل بما ترى ، ووعي يلم بالأشياء ويحللها ويراقب الظواهر ويفكر بها .

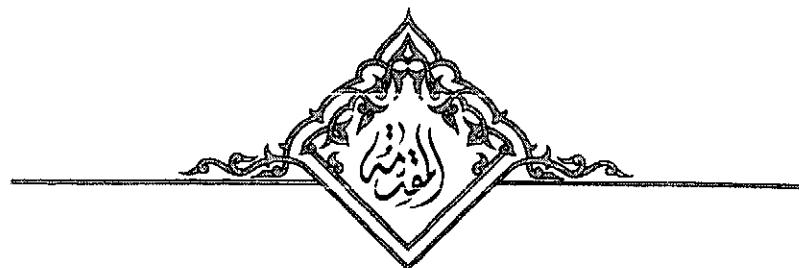
أخيراً ، لا بد من الإشارة إلى أن هذه السلسلة التي قد تبلغ المائة كتاباً من شأنها أن توسيس ، وللمرة الأولى ، لكتبة عربية مستقلة مؤلفة من نصوص ثرية تكشف عن همة العربي في ارتياح الآفاق ، واستعداده للمغامرة من باب نيل المعرفة مقرونة بالمتاعة ، وهي إلى هذا وذاك تغطي المعمور في أربع جهات الأرض وفي قاراته الخمس ، وتحمّل إلى نشان معرفة الآخر وعالمه ، البحث عن مكونات الذات الحضارية للعرب وال المسلمين من خلال تلك الرحلات التي قام بها الأدباء والمفكرون والمتصوفة والحجاج والعلماء ، وغيرهم من الرحالات العرب في أرجاء ديارهم العربية والإسلامية .

محمد أحمد السويدى

لتؤسس للظاهرة الاستعمارية بوجهها العسكري والفكري .

على أن الظاهرة الغربية في قراءة الآخر وتأنيله ، كانت دافعاً ومحرضاً بالنسبة إلى النخب العربية المثقفة التي وجدت نفسها في مواجهة صور غربية مجتمعاتها جديدة عليها ، وهو ما استفز فيها العصب الحضاري ، لتتجدد نفسها تملّك ، بدورها ، الدوافع والأسباب لتشدّر الرجال نحو الآخر ، بحثاً واستكشافاً ، وتعود ومعها ما تنقله وتعرضه وتقوله في حضارته وغطّ عيشه وأوضاعه ، ضاربة بذلك الأمثال للناس ، وينبعث في المجتمعات العربية ، وللمرة الأولى ، صراع فكري حادٌ تستقطب إليه القوى الحية في المجتمع بين مؤيد للغرب موال له ومتّحدس لأفكاره وصياغاته ، وبين معادي للغرب ، رافق له ، ومستعدٌ لمقاتلته .

وإذا كان أدب الرحلة الغربي قد تمكن من تنميّت الشّرق والشّرقين ، عبر رسم صور دنيا لهم ، بواسطة مخيّلة جائعة إلى السّحرى والأبروسي والعجائبيّ ، فإنّ أدب الرحلة العربي إلى الغرب والعالم ، كما سيتّضح من خلال نصوص هذه السلسلة ، ركّز ، أساساً ، على تبيّن ملامح النّهضة العلمية والصناعيّة ، وتطور العمارة ، ومظاهر العصرنة بمثابة في التّطور الحادث في غطّ العيش والبناء والمجتمع والحقوق . لقد انصرف الرّجالات العرب إلى تكميل عيونهم بصور النّهضة الحديثة في تلك المجتمعات ، مدفوعين ، غالباً ، بشغف البحث عن الجديد ، وبالرغبة العميقية الجارفة لا في الاستكشاف فقط ، من باب الفضول المعرفي ، وإنما ، أساساً ، من باب طلب العلم ، واستلهام التجارب ، ومحاولة الأخذ بمعطيات التّطور الحديث ، واقتقاء أثر الآخر للخروج من حالة الشّلل الحضاري التي وجد العرب أنفسهم فريسة لها . هنا ، على هذا المنقلب ، نجد أحد المصادر الأساسية المؤسّسة للنظرية الشرقيّة المندّحة بالغرب وحضارته ، وهي نظرة المتطلّع إلى المدنية وحداثتها من



إذا ما استحقّت رحلةُ ابنِ فضلانَ التي قام بها سنة 921 م عنايةً استثنائيةً من طرف الباحثين والمحققين ، فلأنّها من أوائل الرحلات العربية التي وصلت إلينا . ومقارنة بـ رحلة أبي دلف سنة 942 ، ورحلة المقدسي سنة 985-990 ، فإن رحلة ابن فضلان تظل مشغولة بهم توثيقي صرف أكثر من اهتمامها بالشأن الجغرافي . إنّها وصفٌ أثربوبولوجي يتمحور حول موضوع واحدٍ محدّد لا يحيط عنه رغم قصر النسخة الوالصلة إلينا .

لقد انطلق ابنُ فضلان يوم الخميس 11 صفر سنة 309 هـ ، الموافق 21 حزيران سنة 921 م ، برحلة شائقة بتكليفٍ من الخليفة المقتدر العباسي الذي طلب الصقالبة العون منه . واستغرقت الرحلة أحد عشر شهراً في الذهاب ، وكانت مليئة بالمخاطر والمشاق والمصاعب السياسية والانفصالات على الآخر مختلف ثقافياً .

والصقالبة هم سكان شمال القارة الأوربية ، وكانوا يسكنون على أطراف نهر الفولغا ، وتقع عاصمتهم بالقرب من (قازان) اليوم في خطٍ يوازي مدينة موسكو .

وكان وفدُ الخليفة المقتدر إلى ملك الصقالبة يتكون من أربعة رجال أساسين وبضعة مرافقين من الفقهاء والمعلمين والعلمانيين .

الذي قام به د. الدهان ، وبالاستعانة ، كما أحسب ، بطبعه وليد زكي طوغان العربية-الألمانية .

ياقوت الحموي يقود إلى ابن فضلان

قبل التوصل إلى اكتشاف مخطوطة مشهد التي نشرها د. الدهان فإنَّ النقولات التي قام بها ياقوت الحموي في (معجم البلدان) عن رحلة ابن فضلان هي التي قادت المستشرقين والباحثين للاهتمام بابن فضلان محاولين العثور على نسخة من عمله ، وهو ما توصلوا إليه أخيراً .

يشتبه د. الدهان أنَّ الإصطخري⁽²⁾ وابن رسته والمسعودي قد قررا رسالة ابن فضلان ونقلوا عنه دون أن يُثبتوا أنهم قد نقلوا عنه . لكن الرجوع إلى هؤلاء يُبرهن أنَّ ما يذكرون عنه ، عن الروس والخزر والبلغار ، لا يبيدو كثيراً للتطابق مع رسالة ابن فضلان إلا عرضاً ونقاطاً معلوماتية مشاعية ، يمكن أن تنتهي لأي جغرافيٍّ جاد دون أن ينقل بالضرورة عن غيره .

يدرك الدهان أنَّ ياقوت ، في القرن السابع ، كان (أول) من أشار إلى ابن فضلان ، مختاراً فصولاً من رسالته ومُدرجاً إياها في معجمِه ، مُصرّحاً أي ياقوت ، بأوضاع

(2) الإصطخري : هو أبو القاسم إبراهيم بن محمد الفارسي الإصطخري ، المعروف بالكرخي ، نشأ في إصطخر وتُبَّ إليها . وفي (كشف الظنون) هو أبو زيد محمد بن سهل البلخي ، وفي دائرة المعارف الإسلامية هو أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الذي عاش في النصف الأول من القرن الرابع الهجري . طلب العلم ونبغ في حدود عام 349 هـ ، وعني بأخبار البلاد . فخرج يطوف المناطق حتى وصل إلى الهند ، ثم إلى سواحل الغرب الأطلسي ، وفي رحلاته لقي نفراً من العلماء في الحقول المختلفة . لم تكن مصادر علم البلاد (علم الجغرافيا) موفورة في عصره ، فكان بذلك أول جغرافي عربي صنف في هذا الباب ، إما عن مشاهدة فعلية وإما تقادراً عن كتاب بطليموس . وقد نقلت مؤلفاته إلى عدة لغات وتم طبعها عدة مرات . وقد وصلنا من أعماله كتاباً : كتاب (صور الأقاليم) الذي ألفه على اسم أبو زيد البلخي ، والثاني كتاب (مسالك المالك) .

النسخة الوحيدة المخطوطة رسالة ابن فضلان :

صدرت الطبعة الأولى من «رسالة ابن فضلان» بدمشق سنة 1959 عن مجمع اللغة العربية في دمشق بتحقيق الدكتور سامي الدهان ، مع تقديم واسع وشروحاتٍ ضافية . ثم صدرت طبعتها الثانية عن مديرية إحياء التراث العربي في وزارة الثقافة والإرشاد القومي السوري عام 1977 . ثم صدرت لها طبعة ثالثة (كتب عليها أنها الطبعة الثانية!) سنة 1987 عن مكتبة الثقافة العالمية في بيروت ، وعليها نعتمد نحن في طبعتنا هذه .

يتخذ الدكتور الدهان من (صورة شمسية) لرسالة ابن فضلان أساساً للتحقيق الذي قام به . وإليكم تفصيل الأمر : في سنة 1924 نشر ماركوارت Markwart دراسةً عن الرحلة في ليبتسك ، وفي نفس السنة تسلم المعهد الآسيوي للاستشراق في بطرسبرغ ورقتين مصورتين من النسخة الخطية التي اكتشفت في مدينة مشهد (طوس) الإيرانية ، ووصلت بقية الأوراق مصورة بعد عشر سنوات إلى المعهد . ومنذ ذلك العام نفسه نُشر مقالاً بالروسية في التعريف بالنسخة الخطية المكتشفة في خزانة المخطوطات بممشهد . في سنة 1926 صدر فهرس هذه الخزانة ، وفيه وصف هذه النسخة ، تحت رقم 2 «أخبار البلدان» عربي . وقد كُتبت المخطوطة بخط النسخ ، وفي كل صفحه منها 19 سطراً ، وأوراقها 212 ورقة آخرها مبتوءة مخروم .

وأول من حقق مخطوطة مشهد وعلق عليها وترجمها هو الباحث التركي وليد زكي طوغان الذي قابلها على ما جاء عند ياقوت الحموي ، ونشرها بالحروف العربية والترجمة الألمانية وطبعها سنة 1939 . وفي السنة نفسها ترجمها المستشرق الكبير كراتشوفسكي وكتب لها مقدمة ضافية ، وفي آخر دراسته نشر صورةً فوتوغرافية للرسالة كاملاً عن مخطوطة مشهد وبحجم كبير⁽¹⁾ .

والى أساس هذه الصور الشمسية التي نشرها كراتشوفسكي يستند التحقيق كله

(1) انظر لنزيد من التفصيلات مقدمة الدكتور سامي الدهان : «رسالة ابن فضلان» الطبعة الثالثة (كتب عليها أنها الطبعة الثانية!) عن مكتبة الثقافة العالمية ، بيروت ، سنة 1987 .

الأدب» ، الذي جمع فيه أخبار الأدباء إلى أيامه ، ورتبهم فيه حسب حروف المعجم ، وأشار إلى من اشتغل منهم بالكتاب أو الوراقه أو النسخ أو الشعر . ويعتبر الكتاب موسوعة ضخمة للأدباء . ذكر ياقوت في مقدمته كتب الترجم الكثيرة التي استفاد منها ، وتلذ القائمه الكبيرة التي ذكرها على أنه علم من أعلام مؤلفي الموسوعات في التاريخ . كما يدل على ذلك أيضا تاليفه كتاب «معجم البلدان» ، وهو موسوعة جغرافية ضخمة تستغرق عدة مجلدات ، رتبته هي الأخرى على حروف المعجم ، وتتضمن معلومات أدبية وتاريخية ولغوية في غاية التنوع والثراء .

ياقوت الحموي ليس الوحيد الذي يشير إلى ابن فضلان

من حينها حتى يومنا ، جرى اعتبار ياقوت الحموي المصطف الوحيد الذي ينقل عن ابن فضلان ويشير بصرامة إلى ذلك بعبارات من قبيل : «وقرأت رسالة عملها أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد مولى محمد بن سليمان رسول المقتدر بالله إلى ملك الصقالبة ذكر فيها ما شاهده منذ انفصل من بغداد إلى أن عاد إليها» أو «قرأت في كتاب أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد رسول المقتدر إلى بلاد الصقالبة» أو بعبارات نقدية بصدق ما وجده في الرسالة من الأفكار المنافية للمنطق والعقل .

على أننا اكتشفنا أن ياقوت ليس الوحيد الذي يعترف بنقله واستشهاده بابن فضلان . الفزويني كان يفعل في كتابة (آثار البلاد وأخبار العباد) ، وبثلاثة مواضع من كتابه :

- 1- قال ابن فضلان في رسالته : رأيت جيحون وقد جمد سبعة عشر شبراً . والله أعلم بصحته» .

- 2- حكى أحمد بن فضلان رسول المقتدر بالله إلى ملك الصقالبة لما أسلم فقال : عند ذكر باشغرت وقنا في ...». إلخ .

- 3- حكى أحمد بن فضلان لما أرسله المقتدر بالله إلى ملك الصقالبة وقد أسلم حمل إليه الخلع . وذكر من الصقالبة عادات عجيبة منها ما قال : دخلنا

عبارة ، بأنه ينقل عنه ، خاصة تحت المواد : خوارزم ، باشغرد ، بلغار ، إتل ، روس ، خزر . وقد أثبت ياقوت قرابة عشرين صفحة من الرسالة ، وترك خمس عشرة صفحة منها ، فكانه ، كما يقول د . الدهان ، نقل ثلثيها وبقي ثلث واحد على الأقل مجھولاً .

هل كان ياقوت الأول والوحيد الذي يصرّج جهاراً بنقله عن ابن فضلان كما يقول د . الدهان ويتابعه الجميع بعد ذلك؟ كلا . وهنا واحدة من نتائج بحثنا في رسالة ابن فضلان ومن فضائل طبعتنا الحالية هذه كما سنرى .

لعد إلى المستشرقين المهتمين بتاريخ الروس والبلغار ، ولنر إلى أن اهتمامهم سنة 1800 قد قادهم إلى نشر ما قاله العرب عن الروس وفيهم الإدريسي والمغردي وابن فضلان (عبر ما ينقله ياقوت فحسب لأن نسخة مشهد كانت مجھولة) . سنة 1841 جمع المستشرق راسموسون Rasmussen مقاطع من فصول ياقوت المنقول عن ابن فضلان وترجمتها إلى الروسية ، ونقلها عنه إلى الإنكليزية نيكلسون بعد أربع سنوات . سنة 1819 جمع المستشرق الألماني فريبن Fraehn مخطوطات ياقوت ليستخرج منها ما نقله الأخير عن ابن فضلان ونشرها تباعاً منذ سنة 1822 . سنة 1863 نشر وستنبلد دراسة بالألمانية عن الرحلات عند ياقوت وفيها رحمة ابن فضلان ، وكان يجمع مخطوطات ياقوت من أجل نشر معجم البلدان . وفي سنة 1899 نشر فستبيرغ Festberg دراسة كذلك عن ابن فضلان . وفي سنة 1902 نشر المستشرق فون روزن Rosen مقالاً بالروسية عن ابن فضلان كذلك . سنة 1911 كتب المستشرق التشيكى دفورجاك Dvorak دراسة عن رحلة ابن فضلان نشرها في براغ ، وبعد عامين نشر برتولد Barthold بالروسية دراسة عن موضوع الرحلات إلى روسية عند العرب .

كان ابن فضلان (المقال) عبر ياقوت الحموي في صلب اهتمامات هؤلاء المستشرقين . وكان ياقوت إذن حلقة وصل وتعريف بالرجل قبل اكتشاف مخطوطة مشهد آنفة الذكر .

وياقوت الحموي (ولد عام 1178م - توفي عام 1228م) هو أديب ومؤلف موسوعات ، ولد في مدينة حماة السورية . اشتهر بكتابه «إرشاد الأريب إلى معرفة

يضم ، إضافة للرحلة التي حققها الدهان ، ما يحسبه مؤلفه القسم المفقود منها ، الصائغ أصله ، بل إنه يسعى إلى تقديم كشف جديد بشأن مسارها ، زاعماً أن الرجل قد وصل حتى البلدان الإسكندرافية . والكتاب موضوع الإشارة قد صدر تحت عنوان :

رسالة ابن فضلان : مبعوث الخليفة العباسى المتقدّر إلى بلاد الصقالبة ، عن رحلته إلى بلاد الترك والخزر والصقالبة والروس واسكندرافيا في القرن العاشر الميلادي ، جمع وترجمة وتقدم الدكتور حيدر محمد غيبة ، الشركة العالمية للكتاب ش.م.ل مع آخرين ، سوريا 1991 .

في المتن الطويل لعمل كريكتون ، الذي يسمّيه د. حيدر محمد غيبة (النص الإنكليزي) للرحلة يبدو ابن فضلان وقد دفع دفعاً لأن يكون فارساً ومتّاماً قروسطياً على الطريقة الإسكندرافية . من أين حصل الدكتور غيبة على هذا المتن؟ سأتوقف قليلاً وبالتطوّيل اللازم إذا استدعي الأمر لمناقشة هذا العمل بسبب الارتكاك والخففة المتناهية ذات المزاعم العلمية ، التي أخبر بها الدكتور حيدر محمد غيبة عمله .

يدرك الدكتور حيدر محمد غيبة في مقدمته أن السيدة زوجته دفعت إليه عام 1984 كتاباً باللغة الإنكليزية للسيد ميكائيل كريكتون بعنوان : (أكلة الأموات : مخطوط ابن فضلان عن خبرته بأهل الشمال في عام 922 ميلادية)

Michael Crichton: Eaters of The Dead, The Manuscript of Ibn Fadlan Relating His Experiences With The North Men In A.D. 922 وهو كتاب منشور عن «مؤسسة بنتام» بالاتفاق مع شركة الفريد نوف المساهمة عام 1976⁽³⁾

Published in 1976 by Alfred A. Knopf, Inc. 193 pages.

(3) إسم الناشر وسنة الطباعة مكتوبان في نص الدكتور غيبة بالعربية فقط . نحن من استخرجنا دار النشر وستته باللغة الإنكليزية .

عليه

والاستشهادات هذه مضمومة كاملة في هوماش طبعتنا الحالية . والقزويني هو أبو عبد الله بن زكريا بن محمد القزويني ، ينتهي نسبه إلى أنس بن مالك عالم المدينة . ولد بقزوين في حدود سنة 605 للهجرة (1184 م) ، وتوفي سنة 628 هـ (1261 م) . اشتغل بالقضاء مدة ، ولكن عمله لم يله عن التأليف في الحقول العلمية . شغف بالفلك والطبيعة وعلوم الحياة ، وكانت أعظم أعماله شأنها هي نظرياته في علم الرصد الجوي . مؤلفه الرئيسي هو كتابه المعروف (عجبات الملوكات وغرائب الموجودات) وفيه وصف للسماء وما تحوي من كواكب وأجرام وبروج ، والأرض وجبالها وأوديتها وأنهارها . إلخ . وقد رتب ذلك ترتيباً أبجدياً دقيقاً . كما كتب مصنفه (آثار البلاد وأخبار العباد) وفيه ثلاثة مقدمات عن الحاجة إلى إنشاء المدن والقرى ، وخصوصياتها ، وتأثير البيئة على السكان والتربات والحيوان ، كما عرض لأقاليم الأرض المعروفة آنذاك وبلدانها ومدنها وشعوبها ، وخصائص كل منها . توفي ياقوت سنة 1228 م بينما توفي القزويني سنة 1261 م أي أن بينهما 33 سنة فقط . يسبق إذن ياقوت الحموي القزويني ببعض سنوات ، هل يجوز أن يكون القزويني قد نقل عن ياقوت المقاطع المتعلقة بابن فضلان؟ أشك بذلك بعمق ، لأن من غير المستبعد البة (بل من المؤكد) أن تكون نسخة من كتاب ابن فضلان قد وقعت بين يديه هو نفسه وذلك لطبيعة إشاراته الصريحة المشار إليها لرسالة ابن فضلان ، إضافة إلى أن معاصرته مؤلف آخر يشتغل مثله على المادة والمعلومات المتوفرة نفسها في عصريهما ، لا تنفي وقوع نسخة من الرسالة بين يديه .

وعلى أية حال فنحن أمام واقعة جديدة ، ربما فاتت على من عالج ابن فضلان ودرسه ، وهي أن القزويني ، وليس ياقوت ، لوحده ، من يستخدمه ، بصراحة ، مرجعاً من مراجعه ويسمّيه باسمه ويعترف بنقله عنه .



هل زار ابن فضلان البلدان الإسكندرافية؟

بعد عمل الدكتور سامي الدهان الرائد ، توفرنا ، بانتباه أقل ، أمام كتاب آخر

المغامرات العجيبة الغريبة التي لا تمت إلى روح مخطوطه مشهد بصلة فإن شكاً كبيراً يحوم حول مصادره . ما هي مصادره؟ .

يذكر د . غيبة أن كلاً من كريكتون مؤلف (أكلة الأموات) والباحث النرويجي قد اعتمدَا على ترجم المقتطفات الواردة في معجم ياقوت وترجم لرسالة ابن فضلان حتى عام 1951 باللغات العربية واللاتينية والفرنسية والدانماركية والسويدية والإنجليزية ، دون أن تكون نسخة مشهد بينها⁽⁵⁾ . ويضيف الدكتور غيبة ، في واحدةٍ من تناقضاته الكثيرة ، أن من الغريب أن يحدث إهمالً لنسخة مشهد المنشورة في برلين بنصّها العربي وترجمتها الألمانية سنة 1939 . ها هنا التباس ثان . من الواضح أن ترجم المقتطفات تلك ما هي إلا الفصول التي نقلها ياقوت عن ابن فضلان ولا شيءٌ سوى ذلك . لأننا لا نعرف شيئاً سوى ذلك في الحقيقة قبل مخطوطة مشهد إلا تفاصيلاً متأخرة لا قيمة لها باللغة الفارسية .

يتلقي د . غيبة ملاحظة كتبها الدكتور سامي الدهان وينظر فيها أن هناك ورقة أو ورقتين ضائعتين من مخطوطة (مشهد) لكي يجعلنا نعتقد أن صفحات المغامرات الطوال من (رواية) كليكتون (أكلة الأموات) مخطوط ابن فضلان عن خبرته بأهل الشمال في عام 922 ميلادية) هي التي تسد مسدة تلکم الورقتين . وفي هذا إجحاف بعيد وضرب من عدم الدقة العلمية ، فتلك الصفحات تنطوي ، في الحقيقة ، العشرات بل المئات من الأوراق المخطوطة .

وبدلاً من مخطط الرحلة الذي نعرفه والذي يعاني ، على أية حال ، بعضاً من الخلل بسبب فقدان أجزاء من مخطوطة مشهد ، يقترح الدكتور غيبة استناداً إلى النسختين العربية-النرويجية والإنجليزية المخطط التالي :

أ: في الذهب

1- بلاد العجم والترك

2- الروسية

(5) لا يقول لنا د . غيبة كيف توصل إلى هذه النتيجة وما هي ترجم رسالة ابن فضلان التي اعتمد عليها المؤلفان اللذان يستشهد بهما .

من المثير أننا نقرأ على الغلاف الخارجي الثاني من الكتاب ، كما ينقل د . غيبة ، التعريف التالي بالعمل :

(أكلة الأموات : الرواية الجديدة الرهيبة مؤلف رواية «السطو العظيم على القطار» وهذه أولى الإشارات التي لا تدفع البتة للاطمئنان إلى طبيعة عمل السيد كريكتون ، لأنها تصفه (بالرواية) . على أن الدكتور غيبة ، كما المؤلف كريكتون نفسه ، يودأن إقناع القراء بأن العمل من طبيعة تاريخية موثقة ، لا يرقى إليها الشك ، وهو ما ستناقشه .

خلاصة الأمر أن الدكتور غيبة مقتنع من خلال قراءته وترجمته لكتاب كريكتون بالأمرتين التاليتين :

أولاً : أن مهمة الكاتب ، كريكتون ، اقتصرت على جمع أجزاء رسالة ابن فضلان وترجمة بعضها ، والتقديم لها والتعليق عليها ، معتمداً في الفصول الثلاثة الأولى على مخطوط ابن فضلان كما هو مترجم من روبيرت ب . بليك Robert P. Blake وريشاردن . فراي Richard N. Frye ومن البرت ستانبورو كوك Albert Burrough Cook.

ثانياً : أن المؤلف كريكتون يعتمد فيما تبقى من عمله على الترجمة النرويجية لرسالة ابن فضلان التي قام بها الأستاذ النرويجي بير فراوس-دولوس الذي جمع ما تناول من أجزاء الرسالة⁽⁴⁾ بلغات مختلفة ونقلها للنرويجية بين السنوات 1951 وحتى وفاته 1959 .

من هنا تبدأ الالتباسات كلها في عمل الدكتور غيبة . فهل الفصول الثلاثة الأولى في عمل كريكتون هي تلك المترجمة عن مخطوط مشهد؟ لا نحر جواباً ، رغم أن ظاهر الكلام يوحى بذلك . وإذا كان الحال كذلك فلا بأس عليه وعليها ، فنحن ثانية في صلب عمل ابن فضلان الذي نعرف . أما إذا كان العمل التجميعي - وهو عصب الفصول الأخرى - الذي قام به الباحث النرويجي بير فراوس دولوس هو تلکم

(4) وأنا غير أكيد البتة ، لأسباب منهاجية وعلمية ، من أن الأمر يتعلق برسالة ابن فضلان التي تعنينا هنا .

3- شمال أوربا وإسكندنافيا
ب: في الإياب (طريق العودة لبغداد)

1- بلاد الصقالبة

2- إقليم الخزر

واضعاً شمال أوربا وإسكندنافيا في عصب رحلة ابن فضلان ، وهو ما يظهر بالفعل في كتابه (ترجمته لكتاب كريكتون أي النص الإنكليزي) الذي شغل الرحلة الافتراضية هذه فيه الفصول الطوال من 5 إلى 16 . وهذا الترتيب يريد ، كما يقول هو نفسه ، التوفيقَ بين النصين العربي والإإنكليزي .

ولكن ماذا لو كان نصُّ كريكتون الإنكليزي هو مجرد تخيلات جميلة سطرها قلم روائي بارع؟ هذا ما لا يجibe عليه د . غيبة على الرغم من أنه هو نفسه يشير الشكوك حول مصداقية النص الإنكليزي هنا وهناك متناسياً حماسه له .

لو تركنا جانبًا مقدمة د . غيبة وانصرفنا إلى مقدمة كريكتون ، فإن البحث العلمي والتاريخي فيها يختلط بخيال الروائي . وفي مقطع طويل عنوانه (مصدر المخطوطة) لا ندري فيما إذا كان يتحدث ثانيةً عن أعمال المستشرقين الذين يترجمون فصول رسالة ابن فضلان التي نقلتها لنا ياقوت ، أم عن مخطوط أصلي لابن فضلان . هذا الالتباس مدوخ بالفعل . ولولا ضيق المساحة والخشية من التطويل لناقشنا كل فقرة من فقرات هذا المقطع . سأتوقف عند البعض منها فحسب :

بعد حديث كريكتون عن مقاطع رسالة ابن فضلان في معجم ياقوت المترجمة مراراً ، يقول لنا فجأة «واكتشف جزء آخر من المخطوط في روسيا عام 1817 ، ونشر باللغة الألمانية في أكاديمية سانت بطرسبرغ في عام 1923 . ويتضمن بعض المقاطع التي سبق نشرها من قبل ج . ل . راسموسون عام 1914 ، وقد استقى راسموسون عمله من مخطوطٍ وجده في كوبنهاغن ، ثم اختفى ، ومن مصادر مشكوك بها . كما ظهرت في ذلك الوقت ترجم سويدية وفرنسية وإنكليزية ، إنما عرفت بعدم دقتها وخلوّها على ما يبيّن من مادة جديدة». إحدى الإشارات في هذا المقطع تشير إلى الورقتين المصورتين من النسخة الخطية التي اكتشفت في مدينة مشهد (طوس) الإيرانية التي تسلّمها المعهد الآسيوي للاستشراق في بطرسبرغ ، في حين أن

مخطوط كوبنهاغن ، كما يقول كريكتون نفسه ، مشكوك به ، والترجمات التي يذكرها غير دقيقة ولا تضيف جديداً . بعد ذلك مباشرة يقول : «واكتشف مخطوطان جديدان عام 1878 في مجموعة التحف الأثرية الخاصة بسفير بريطانيا السابق في القسطنطينية ، سير جون أمرسون . وأحدهما لأحمد الطوسي وبعود تاريخه الموثق لسنة 1047 الميلادي ، وهذا يجعله أقرب لخطوط ابن فضلان الأصلي .. مع ذلك يعتبر الباحثون مخطوط الطوسي أقل وثوقاً من جميع المصادر ، ويتردد كثير من المؤلفين في قبول أعماله لكثرة ما فيه من الأخطاء الظاهرة والتناقضات بالرغم من أنه ينقل مقتطفات مطولة من ابن الفقيه الذي زار بلاد الشمال» . هذا المصدر ، وعلى لسان كريكتون مشكوكه أيضاً ، ولا يبدو البتة وهو ينقل نصاً لابن فضلان وإنما يجمع أحاديث عن بلاد الشمال من مؤلفين مختلفين (ابن الفقيه مثلاً كما يقول كريكتون نفسه) .

هنا يبدو كريكتون وهو يخلط أشد التخلط رغم نبرته الوائقة ظاهرياً . ثم يمضي للقول عن مصادر مخطوطاته : «ويقع تاريخ المخطوط الثاني لأمين الرازي بين عامي 1585 و 1595 الميلاديين . وقد كتب باللغة اللاتينية وتُرجم مباشرة من النص العربي لخطوط ابن فضلان كما يقول مؤلفه . ويتضمن مخطوط الرازي بعض النصوص عن أتراك الغزية وعدة مقاطع عن معارك مع «وحوش الضباب» التي لم يرد ذكرها في المصادر الأخرى» . وهنا يحتاج المرء لقليل من الذهن الصافي لكي يميز معاني الكلام في نصِّ الروائي كريكتون ، وهو أن الرازي ينقل (مقاطع فحسب من نص ابن فضلان) . هذا ما يقوله كذلك د . الدهان في هامش له أورданاه نحن في عملنا : «وأما في كتاب (هفت إقليم) للرازي فالتفصيل يزيد النص أهمية وقد نقل عن مخطوطة ابن فضلان ضاعت» . نصُّ كريكتون نفسه يوحي بأن نص الرازي يتناول جملة من القضايا ولا يتعلّق برسالة ابن فضلان لوحدها . ثمة إذن تخلط جديد .

ما تبقى من تحقيقات كريكتون من طينة النطق نفسه : جميع الأصول التي يستند إليها مشكوك بها أو أنها تتكلّم عن بلاد الشمال استناداً إلى مصادر متعددة ، لاتينية خاصة ، وليس من مصدر وحيد واحد هو ابن فضلان . ربما ذكرتْ مصدر كريكتون ابن فضلان عرضاً أو عبر مؤلف آخر يستشهد به ، ولكنها ليس البتة مخطوطة أصلية

عن ابن فضلان، ويعدّ فيها مصادره بطريقة جد غامضة توحّي بأنه في صميم عمل تارخي، كما يضع في ثنایا نصه الكثير من الهوامش التي تشرح طقساً أو تقليداً إسلامياً، مما يمنع القراءة بعداً جديداً يسعى عامداً إلى طمس الحدود بين التخييل والواقعي.

هذه الحيلة الجميلة، لكن الخطأ، تسعى إلى اندغام لا فكاك منه بين الحقيقة والخيال، والإيحاء للقراء بأنّهم في صلب واقعة تاريخية لم يفعل هو إلا نقلها إليهم (وهو ما لم يقل كريكتون بعكسه للأسف الشديد حتى اللحظة). حيلة روائي هوليودي من طراز رفيع. لكن هذه الحيلة لم تفت على قادة الأميركيين الأكثـر جدية الذين وصفوا العمل في الصحافة بأنه: «كتابة متخيلاً لقصة مأخوذة من سفير عربي إلى بلاط الخليفة في بغداد»⁽⁷⁾.

A fictionalized account taken from the manuscript of an Arabic ambassador to the court of the Caliph of Baghdad.

إن أعمال الروائي هي على حد تعبير الناقد الأميركي دافيد لانغران David Lonergan : الورقة تروي تعدد المعاني التي سعى الروائي ميكائيل كريكتون عبرها منع أعماله مظهراً غير متخيل . التقنيات الخاصة والناجحة المستخدمة في (أكلة الأموات) قد لوحظت .

The paper chronicles the variety of means with which the novelist Michael Crichton has attempted to give his works the appearance of nonfiction. The specific and successful techniques utilized in Eaters of the Dead are noted, and the resulting erroneous classifications by the Library of Congress and subsequent cataloguers discussed.

لكن الحيلة فاتت على البعض الآخر منهم ، من يضربون عميقاً بالجهل بتاريخنا

(7) هذه العبارة لا تقل جهلاً عن جهل كريكتون بالمعطيات التاريخية ، وتفسّر الوعي الأميركي بالتاريخ العربي الإسلامي ، فإن هذا السفير كان مبعوثاً من طرف الخليفة وليس إلى الخليفة . نقل العبارة فحسب لأنها تؤكد على الطابع الخيالي للعمل .

آخرى لرسالة الرحالة العربي غير التي نعرف ، رغم أن كريكتون يريد الإيحاء ، بأسلوب ملتو ، بأن عمله قائم على مخطوطه من مخطوطاتها . في هذا الإيحاء ثمة لعبة روائية بارعة ، لا تمت بصلة للبحث الرصين . وهو ما يفعله كريكتون بهارة فائقة أربكت د . غيبة وأخرين من أساتذة الجامعات (كالدكتور عبد الله إبراهيم) حتى حسب كلامه دقيقاً وعلمياً وموثقاً .

نقل في البدء كلمة عن الروائي: إنه الأميركي (جون) ميكائيل كريكتون ، روائي وسينمائي مولود سنة 1942 . أنهى دراسته في جامعة هارفارد ، ثم تنقل بين دراسة الأنثروبولوجي والبيولوجي ، وكرس نفسه في نهاية المطاف للكتابة . أصدر العديد من الدراسات الأدبية وكتب العديد من الأفلام السينمائية التي أخرج أو أنتاج قسماً منها بنفسه . كما كتب العديد من الروايات الخيالية أو المستمدّة من مادةٍ تاريخية وكان بعضها من الكتب الأكثر مبيعاً في أمريكا :

(The Great - 1969) و (The Andromeda Strain - 1972) و (The Terminal Man - 1972) و (Train Robbery - 1975) و (Eaters of the Dead - 1976) وهي الرواية التي تعنينا هنا (Rising Sun - 1980) و (Sphere - 1987) و (Congo - 1990) و (Jurassic Park - 1992) و (Airframe - 1995) و (Disclosure - 1993) و (The Lost World - 1996) و (Timeline - 1999) و وغير ذلك⁽⁶⁾ .

يكتب كريكتون رواية تاريخية لا أكثر ولا أقلً ، ويشير إلى ذلك في الغلاف الثاني من كتابه . إنها رواية خيال Fiction تاريخية على غطٍ روايات أمين معرف (ليون الأفريقي ، على سبيل المثال) . لكن خلافاً لمعرف الذي يهتم كثيراً بالتفاصيل التاريخية وبصوغ وفق مخطط روائي متخيل ، فإن كريكتون يجمع القليل جداً من التفاصيل المستöhنة عرضاً عن بطله ابن فضلان ، وبصوغ الباقى كلّه وفق مخطط روائي مختلف بال تماماً .

على أنه يستخدم حيلة روائية مدهشة وهي أنه يكتب مقدمة تعريفية شبه جادة

(6) في البحث عن كريكتون استعثنا بالويب على الإنترنت . ووجدنا الموقع الشخصي لميكائيل كريكتون وعشرات المقالات والتعليقات له وعنـه ، ونحن نستعين بها هنا في تحليـنا .

العربي الإسلامي⁽⁸⁾

لقد ترجم د. غيبة رواية كريكتون الخيالية ومنحنا الفرصة للاطلاع عليها ، معتقداً أنه يترجم وثيقة تاريخية . وشنان بين الاثنين .

يظهر ابن فضلان في الرواية واحداً من الشخصيات الرئيسية ، لكنه بطل يحمل جميع السمات السلبية التي ما فتئ بعض الفكر الغربي يلصقها بالعرب . ابن فضلان فيها هو رمز للعربي (لا يعرف كريكتون أن الرجل كان مولى ! ومن أين له أن يعرف) . فهو جبان إلى أبعد الحدود ، ولا يمتلك روح النكارة ، مزجور على الدوام بسبب تدخلاته الفظة بما لا يعنيه ، مرتعد الشرائص⁽⁹⁾ (ولا يريد أن يكون بطلاً) ومتزعم في تدينه بادع الأمر ثم متناقض مع معتقداته الدينية . غبي ، لا يعرف السباحة ، مندهش من خصرة الغابات التي لا تعرفها صحراؤه . بالمقابل يبدو رجال الشمال الفايكنغ ، وعلى لسان الرواи ابن فضلان نفسه ، أشداء ، لا يخافون شيئاً ، جسوريين وشجعان إلى درجة يبدو معها ابن فضلان بينهم فأراً تافهاً مختبئاً في جحره وفي أحسن الحالات ديكروراً اكتروتيكيًّا متعماً . ثمة سخرية متناهية وحطٌ من شأن العرب في عمل كريكتون وتفنّكه فظ من نزعتهم الدينية التوحيدية⁽¹⁰⁾ ، وهو أمر يدعو إلى دهشة وعلامة استفهام عظيمة على طبيعة تفكير الدكتور غيبة الذي حسب العمل توثيقاً تاريخياً ، والمزيد من الدهشة من عمل الناقد د. عبد الله إبراهيم الذي راح يحلل بحماس منهجه (الآيات السرد) في تمجيدات كريكتون الشخصية وسخريته من العرب ويسحبها نصاً أصلياً لابن فضلان . أليس من العجب العجاب أن تفوت سخرية مرة ، فاقعة بإشاراتها المتعالية على قلمين مثل قلمي هذين الدكتورين

(8) يكتب الناقد الأمريكي آدم لش Adam Lesh عن عمل كليكتون : «كتب هذا الكتاب بوصفه كتاباً مدرسيًا أكثر مما هو رواية .. . وهذا خطأ فاحش كما تحاول أن تبين هنا .

This book is written more like a scholarly work than like a novel, yet it definitely tells a story,

(9) ص 194 عند د. غيبة .

(10) ص 215 عند د. غيبة .

الفضالين .

هاكم هذه المقاطع :

«قلوبكم (أيها العرب) عبارة عن كيس كبير يطفح بالأسباب »⁽¹¹⁾ في السخرية من التزعة العقلانية عند العرب .

«أنتم العرب أغبياء أكثر مما يمكن أن يتصور»⁽¹²⁾ .

«لا أريد أن أسمع أسئلة من أحمق»⁽¹³⁾ أي من عربي .

«إذا لم يكن مسحوراً فلربما أصبح عربياً إذ أنه يفضل ملابسه الداخلية وجسمه كل يوم»⁽¹⁴⁾ بالسخرية من تزعة النظافة المستمرة والطهارة عند المسلمين .

وقال للجارية : لا يزال عربياً»⁽¹⁵⁾ بسبب تأوه بطل كريكتون ابن فضلان بعد غسل جروحوه بالماء المالح على يد فتاة شمالية .

في رواية كريكتون فإن ابن فضلان يتكلم باللاتينية ، ويتفاهم بها ، وهنا أمر كان يتوجب على د. غيبة التوقف أمامه ملياً ، ولم يفعل . لكنه إزاء تنامي وتصاعد حدة التناقضات والإشارات التي توّكّد أن العمل مصنوع صنعاً كرواية كان مجبراً على التوقف والتساؤل مرات قليلة . ففي تعليقه على ما ورد في الرواية عن مرور ابن فضلان ومشاهدته لمدينة بلغار من على ظهر قاربه من بعيد ، يقول د. غيبة : «إذا كان ابن فضلان لا يعرف شيئاً عن هذه المدينة حتى الآن ، فهذا يتناقض مع الاعتقاد بقيامه بزيارة بلغار ملك الصقالبة قبل زيارته سائر بلاد الروس وشمال أوروبا . وإذا كانت زيارته لبلاد الصقالبة بعد عودته من بلاد الشمال ، فإنه يتعارض مع التقائه بأصحابه في بلاد الصقالبة بدون أي تهديد أو إشارة إلى الشام شملهم ، إلا أن يكون حديثه عن ذلك هو من الأجزاء المتورة التي لم يُعثر عليها حتى الآن ، كما ألمحنا في

(11) ص 103 عند د. غيبة .

(12) ص 120 عند د. غيبة .

(13) ص 153 عند د. غيبة .

(14) ص 162 عند د. غيبة .

(15) ص 170 عند د. غيبة .

المقدمة»⁽¹⁶⁾.

وفي هامش آخر للدكتور غيبة بصدق تعليق ابن فضلان المذهول من وجود حيوانات بحرية ضخمة يسميها الروائي على لسانه وحوش البحر، يقول د. غيبة: «من الواضح أن وحوش البحر التي تحدث عنها ابن فضلان هي الحيتان. إنما من المستغرب أن يجهل وجودها في البحر»⁽¹⁷⁾. وعندما يجعله الروائي يمارس الجنس مع امرأة متابعاً شبق الشماليين اللامحدود، يعلق د. غيبة ببعض من السذاجة: «من الصعب تفسير هذا الاعتراف لابن فضلان، وهو المسلم التقى، إلا إذا كانت الجارية أمّة ملوكه له باعتبار التمتع بثقلها كان مباحاً، أو أنه فقد بعض تقاه (...). أو أن الإنسان يضعف أحياناً أمام الإغراء»⁽¹⁸⁾.

لكن الدكتور الفاضل يعلن بعد صفحات قليلة علانية شكوكه العالية بنص كريكتون فيكتب في أسفل الصفحة:

«هذه الأقوال وبعض العبارات التالية تزيد الشك في أصلية النص ، ذلك الشك الذي يشتَدُ بصورة خاصة مع بعض عبارات الفصل التاسع التي تتمُّ عن حذفه وثقافة حديثين»⁽¹⁹⁾.

لماذا لم يشك الدكتور حيدر محمد غيبة منذ البدء بأصلية النص؟ ولماذا كتب تحليلاً مطولاً في مقدمته طرح عمل كريكتون فيه وكأنه تتمةً تاريخية حقيقة لرحلة ابن فضلان؟ ولماذا حسب الدكتور عبد الله ابراهيم النصًّا أصلاً لابن فضلان ، رغم إشارة غامضة له بعد أصلية بعض المقاطع فقط (انظر الهامش أدناه)؟ ثمة خلل مدرر في الثقافة العربية الراهنة يعبر عنه مثال هذين الدكتورين اللذين يتوجب عليهما

تعليمنا ، هم قبل غيرهم ، الخذر المنهجي : أحد شروط البحث العلمي⁽²⁰⁾ .
الآنكي من ذلك أن المؤلف نفسه كريكتون ، كما لاحظ مراقب فرنسي ، يريد اليوم استبعاد هذا العمل من مجموعة مؤلفاته⁽²¹⁾ (انظر كذلك ما كتبه الناقد الأمريكي داني بي Danny Yee بهذا الاتجاه نفسه)⁽²²⁾ . لماذا؟ لأن المقدمة التاريخية التي كتبها بشقة على أنها تستند إلى معطيات تاريخية موثوقة ، لا تبدو مستندة إلى شيء موثوق ، وأنه ربما يخشى الفضيحة الثقافية ، خاصة وأنه لم يقرأ ، كما هو واضح ، متن مخطوطة مشهد المترجم مراراً إلى لغات عدة تتفق الإنكليزية على رأسها . إنه يكتب فنتازيا خالصة جرى إنتاجها فعلًا فيما بعد ، سنة 1999 ، بفيلم مغامرات سينمائي على الطريقة الأمريكية تحت عنوان (1999 - 1999 - Thirteenth Warrior) كان هو شريكًا في إنتاجه .

(20) يكتب د. عبد الله إبراهيم مثلاً: «يقول «كريكتون» (الذي أعاد تركيب الأصول المفقودة لرسالة ابن فضلان (= رواية على سبيل التخييل في بعض الفصول) بالإنجليزية اعتماداً على مقاطع تم التحريف عليها بلغات كثيرة ...). ملاحظته القائلة «رواية على سبيل التخييل في بعض الفصول» لا تعني أنه قد صدق بالكامل بعنوان كريكتون واستند إلى مشاهد روائية كاملة وخللها على اعتبارها نص ابن فضلان . نتصفح بالعودة إلى النص الكامل لدراسة د. إبراهيم المنشورة في موقعه على الإنترنت . وقد سبق له أن نشرها في الصحافة العربية .

(21) هذا ما يقوله معلم فرنسي على الفيلم المنتج من روايته : (كتابه الصادر سنة 1992 : (أكلة الأموات) هو كتاب صغير من كتب المؤلف (أقل من 200 صفحة) يسعى المؤلف لسبب غامض أن يخفيه من مؤلفاته».

Paru en 1992, EATERS OF THE DEAD est un "petit" livre pour l'auteur (moins de 200 pages), que CRICHTON cherche, pour une raison obscure, à faire disparaître de sa bibliographie.

(22) كتب المعلم الأدبي (داني بي) يوم 11 آب 1992 يقول في ملاحظة له عن الكتاب :

Apparently Crichton has disowned Eaters of the Dead and it doesn't appear in his official bibliography. I'm not sure what the reason for this is.

ص 97 عند د. غيبة .

(16) ص 117 عند د. غيبة .

(17) ص 147 عند د. غيبة .

(18) ص 151 عند د. غيبة .

د . إبراهيم النص المخالف على يد كريكتون بالطبع . ويروح في تحليل طويل عن (غياب المتن) . سوى أن المتن ليس بضائع والله ، فالصفحات الطوال التي تقدمها مخطوطه مشهد هي (متن أكيد) ، يستحق التأمل والفحص رغم قصره وضياع بعض أوراقه . إننا لا نستغرب أن يقف القراء في موقف العجب من هذا النمط من الخطاب المتناقض الباهر .

من هو ابن فضلان؟

ثبت ابن فضلان لحسن المنهج اسمه : أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد ، ولم يقل لنا شيئاً آخر عن حياته ، ما عدا أنه ، كما تقول الرسالة ، مولى لفافع مصر محمد بن سليمان . ويقول ياقوت إنه كان مولى محمد بن سليمان ثم مولى أمير المؤمنين فهو من العجم المولى . هل ولد في العراق أم بأرض العجم؟ وما هو منصبه في الإدارة العباسية ، وهل كتب أعمالاً أدبية غير هذه الرسالة؟ أم أن رحلته هذه لا تعلو أن تكون تقريراً من هذه التقارير التي يكتبها السفراء لدولهم؟ .

== كما سرني ، حينما يندمج ، يستعيد وضعيته كعنصر فاعل ، بعد مرحلة الخمول الأولى ، يُقبل كمقاتل باسل ، يُسمّم في إحران نصر محقق على «الوندو». يصبح سايع الأبطال ، يتخلص من شؤم الدور الثالث عشر ، فيسعد بالدور السابع ؛ الرقم المقدس في عالم الإسلام . ما أن يعود من دار الكفر إلى دار العهد ، إلا وتفتهر الكتابة العربية مرة ثانية ، لتذكر بالشغرة الشفاهية المدمرة التي لم يتمكن أحد من تخفيتها إلا بوساطة الآخر . ولم يُشر ياقوت الحموي إلى تفاصيل الرحلة ، بعد أن أخذ عنها الشيء الكثير ، شكك في الرويات الخاصة بالصقالبة ، وأعلن براءته منها ، وعدم ضمان صحتها . وإذا صحت تلك الرويات التي عبرت إلينا خلال لغات الآخر ، وأخذت بالاعتبار فرادة المقامرة ، ومداها الواسع ، وأحداثها ، وأثراها في شخصية ابن فضلان ، يصبح من الممكن أن يُسمح بعرضها على العموم كاملة . إذ يتبعي أن تركب صورة مشوهة للآخر . يتحمل أن ياقوت الحموي نفسه ، بعد مضي ثلاثة قرون لم يكن قادرًا على تصديق أحد مصادره عن بلاد الصقالبة» . وهناك أشياء أخرى أكثر غرابة في تحليله اللاحق لا مجال لها هنا .

إذا ما كنا نقاش ما صنعه د . غيبة بهذا التوسيع ، فلأن صنيعه مؤذ وضار بحق رحلة ابن فضلان ، ولأن هذه الصنيعة قد تجري بين أوساط القراء ، تاهيك عن دكتاترة مثل الدكتور الفاضل عبد الله إبراهيم ، مجرى الحقائق التاريخية الدامغة . إن جزءاً لا يستهان به من تخليلات الدكتور إبراهيم ، الجادة والصارمة ، تستند وللعجب إلى هذا العمل الروائي المتخيل ، لنقرأ : «الكتابة تلعب دوراً مهماً في تثبيت رؤاه (يقصد ابن فضلان) وتصوراته وأحكامه ، ما دام يتحرك في مجاله الثقافي ، داخل دار الإسلام . وما أن ينزلق إلى عالم الكفار إلا وتتوقف الكتابة . يضيع من المخطوط ذلك الجزء الرئيس الخاص بالأخر . كأن ثمة قوة سحرية انتزعت كل ما يتصل بالأخر . لم يُعثر إلى الآن على الأصل العربي . كل ما يتصل بالأخر ، تم ترميمه وتجميعه ، وترجمته إلى اللغة العربية استناداً إلى شذرات متباينة باللغات اللاتينية والألمانية والفرنسية والدنماركية والسويدية والإنجليزية وغيرها . لغات الآخر هي التي أعادت إليها وجهة نظر ابن فضلان بالأخر» .

وبالطبع فإن إشارة د . إبراهيم إلى تلك اللغات هي إشارة إلى رواية كريكتون الهوليودية . هل ثمة من يضحك على ذوقتنا : هناك بكتابه ساخرة عن واحد من رجالتنا ، وهنا بكتابه لا تقل سخريةً ومرارةً ولكن بقناع عارف فحسب . سينتهي الأمر بالدكتور عبد الله إبراهيم بالشكّ يياقوت نفسه الذي لم يستطع ، حسب إبراهيم ، تصدق نصّ ابن فضلان عن البلدان الإسكندنافية فحذفه⁽²³⁾؟ . يستعيد

(23) يقول د . عبد الله إبراهيم عن ابن فضلان مستنداً في تحليله إلى رواية كريكتون : «... سقط (ابن فضلان) في الشرك الذي كان يختار الجميع منه : معايشة عالم الكفر . داعمه نوع من السياسة ، فعلى مرمى حجر من القطب الشمالي ، أصيبت ذاكرته بطبع عقائدي ، لكنه يدرج ضمن الآخر عليه أن ينسى ، أن يوقف عمل الذاكرة . في البداية كان نتوءاً زائداً ، مجرد فضلة ، الرقم الزائد المكمل للمقاتلين البواسل الثاني عشر . إن الرقم الأخير ، الرقم الثالث عشر كاماً مجرد وسيلة لسد نقص ، ففي المهمة التي دفع إليها ، لا بد أن يكون ثمة أجنبى يقوم بدور تحكمي . ابن فضلان ، أصبح فضلة ، هو المسلم الختون كان مجرد قلقة للتغطية . ومع الوقت يتخفّف من ملاحظاته الانتقادية ، بسبب الجهل التام بالأسباب وذلك ما يفضي به إلى خطأ التفسير أو سوء التأويل . وفي النهاية ، ==

تُكَنْ تشتغل في الواقع العملي كما تشتغل على الصعيد النظري البحث ، مثلها مثلُ
الكثير من المفهومات السائدة الأخرى . هذا ما تبرهنـه الهجرة واسعة النطاق من طرفِ
جغرافيين وعلماء ذلك هنود ، وخزافين صينيين وغيرهم ، قادمين كُلُّهم من دارِ الكفرِ
(الهند) و(الصين) للإقامة في (دارِ الإسلام) ، بغداد العباسية . بإمكاننا الآن تعداد
الشرفات من أسمائهم . الخطط الذي يبني عليه البعض تحليلاً لهم المعاصرة ، بشأنِ
هذه الثنائيَّة ، يبقى من طبيعة تلفيقية مفضٍّ .

على العكسِ من ذلك يبدو ابنُ فضلانَ وصحابه ، وهو في موقفِ الواثقِ ، إلى
درجة كان يأمر بها وينهي ملكَ الصقالبة نفسه : « ويدأتُ فقراتُ صدرَ الكتابِ فلما
بلغتُ منه «سلام عليكَ فإنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللَّهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ » ، قلتُ : رُدْدُ على
أميرِ المؤمنين السلام ، فرَدَ ورَدُوا جمِيعاً بأسِرِّهم ». وثُوقٌ قادمٌ من ترسُّخِ وقوفةِ الحضارةِ
الإسلاميةِ في العالمِ القديم . ومثلما لا يشعرُ الأميركيُّ اليوم بالهيبةِ من حضورِ
الآخر ، فلم يكنُ العربيُّ والمسلمُ ليغایرانِ من هذا الشعورِ .

٢- هجرة الأيدي العاملة تتبع مراكز الشروة:

تُعدُّ العواصمُ الغنيةُ الكبرى ، في لحظاتِ الإزدهارِ الحضاريِّ ، محطاتِ لقادمينِ
من مختلفِ أصقاعِ العالمِ يبحثون عن لقمةِ العيشِ . إنَّ تجمُّعَ الشرواتِ في بُقعةِ ما
يعني من بينِ ما يعني ، أنَّ تلكَ العواصمَ قد صارتُ موطنًا لتجمُّعِ كمياتٍ كبيرةٍ منِ
الذهبِ . وهو مانراه في عواصمِ الأرضِ اليوم : فرنسا ، ألمانيا ، الولاياتِ المتحدةِ
الأمريكية ، سويسرا . بالــخ التي تستقطبُ المزيدَ من المهاجرينِ من مختلفِ
التخصصاتِ . إنَّ القاعدةَ العامةَ في التاريخِ الاقتصاديِّ هي أنَّ هجرةَ الأيديِ العاملةِ
تتابعُ مراكزَ انتقالِ الذهبِ : رمزِ الشروة . هذا هو حالُ بغدادِ في العصورِ العباسيةِ
المذهرةِ التي كانَ وضعُها يشابه تمامًا العواصمَ الثريةَ في وقتنا الحاليِّ . يشابهه تماماً
حتى بالتفاصيلِ الأكثرِ دقَّةً . فإنَّ وجودَ تجمُّعاتِ وأسواقَ بجالياتِ أجنبيةٍ مثلِ
الهنودِ والصينيينِ والعربِ في فرنسا ونيويوركِ اليومِ كانَ له مثيلٌ في (سوقِ خضرِ)
لباقةِ وصناعِ الخزفِ والغضارِ الصينيِّ في بغدادِ العباسيةِ ، وفي الأعدادِ المتزايدةِ منِ
الهنودِ المشتغلينِ في حقولِ التنجيمِ والرياضياتِ ، والبيزنطيينِ المشتغلينِ في حقولِ

يخيلُ إلينا أنَّ سفيرًا مبعوثاً إلى أقصاصِ الأرضِ كانَ يجبُ أنْ يمتلكُ الكثيرَ منِ
الحكمةِ والحنكتةِ ، لذلك نظنُّ أنه كانَ في الأربعيناتِ من عمره عندما كُلِّفَ بهمَّتهِ .
ويُخيَّلُ إلينا أنَّ بعثةً مثلَ بعثتهِ كانتْ تستلزمُ رجلاً ذا ثقافةً معقولةً ، وهو ما نظنُّ
حالَهُ ، وهو ما يدلُّ عليهُ وصفُهُ الثانيُّ للبلدانِ والتقاليدِ التي شاهدَها عيَّاناً . ونعتقدُ
أنَّ هيئتهِ وبُرْزُتهِ كانتَ في غايةِ الرصانةِ ، وأنَّه اختيرَ لمقابلةِ ملوكِ الصقالبةِ والخزَّارِ
والروسِ لأنَّ شكلَهِ كانَ مقبولاً بالنسبةِ إليهم وقرباً منِ أشكالِ الشعوبِ التي زارها .

لم يَرِدْ توثيقُ حياةِ ابنِ فضلانَ في أيٍّ من المراجعِ التي بينَ أيدينا ، بالضبطِ مثلما
لا تُوجَدُ إلا أقلُّ التفصيلاتِ عن حياةِ المقدسيِّ صاحبِ (أحسنِ التقاسيمِ في معرفةِ
الأقاليمِ) الباهرِ ولا حياةِ الرحالةِ أبي دُكْفَ . وفي ذلك إشارةٌ واضحةٌ لأنَّ إلى
اللامبالاةِ التي كانتْ تُمِيزُ نظرَ الثقافةِ العربيةِ إلى أعمالِ الرحالةِ العربِ ، وعدمِ اعتبارِ
الكتابةِ في أدبِ الرحالةِ فنَّ رفعِ المستوىِ يستحقُ إدراجَ مؤلفيهِ من بينِ مصنَّفيِ
ضروبِ الأدبِ الأخرىِ المبجِّلينِ والمُؤرِّخِ لهم بأكثَرِ التفاصيلِ وأدقَّها (الفقهاءِ ،
الشعراءِ ، الأطباءِ ، الح giovin . إلخ) .

تقعُ أهميَّةُ رحلةِ ابنِ فضلانَ في أنها تُرَوِّدُ التاريخَ العالميَّ بشذراتِ مهمَّةٍ عنِ أمَاطِ
معيشَةِ شعوبٍ قلَّما سُجِّلت . إنَّها تسلُّى ثُغرةً تاريخيةً في هذا المجالِ وتعتبرُ رائداً فيِ
الإشارةِ لتاريخِ الشعوبِ الصربيَّةِ ، والروسِ منهم على وجهِ التخصيصِ .

لقدْ قيلَ الكثيرُ عنْ هذهِ الرحلةِ وترجمَتْ أكثرُ منْ مرةً لجميعِ اللغاتِ الأساسيةِ
اليومَ في العالمِ . ونؤُدُّ هنا أنْ نشيرَ إلى أمرَيْنِ اثنَيْنِ :

١- علاقةِ العربِ بالأخرِ:

لا تبدو علاقةُ العالمِ العربيِّ ، أو أقْلُها ثقافةُ الناطقينِ باللغةِ العربيةِ منْ عربٍ وغيرِ
عربٍ منْ كانوا يستخدمونَ العربيةِ في حضارةِ كانتْ هذهِ اللغةُ بها شيئاً ساماً
وضروريًّا ، بمثيل استلابها هذا اليومَ معِ الآخرِ ، وهو ما تبرهنـه رحلةُ ابنِ فضلانَ . لمْ
يكنَ الاختلافُ البديهيُّ بينَ الأنا والآخرِ ليتصاعدَ إلى المستوىِ الموصوفِ في كتاباتِ
بعضِ منِ الباحثينِ العربِ المعاصرِينَ مُنْ يصفونَ العلاقةَ معَ الحضاراتِ الأخرىِ
بنطقيِّ الحذرِ والرَّيبةِ ، بل إنَّ ثنائيةَ نهايةً ومطلقةً بينَ (دارِ الإسلامِ) و(دارِ الكفرِ) لمْ

عما شاهد ، البعض منها دقيق تماماً والآخر أقل دقة .

إن قراءة ابن فضلان تمنح متعدة نادراً ما يلتقيها المرء في عمل من النوع الأدبي نفسه ، لأسباب سيكتشفها القارئ لوحده عندما يُشرع بقراءة العمل .

أي مسار اختط ابن فضلان؟

إذا ما تتبعنا الأماكن والمدن التي يذكرها ابن فضلان ، فسوف نسجل أنَّ مسار الرحلة كما هي بين أيدينا الآن هو بلاد : العجم والترك - الصقالبة - الروسية - الخزر .

وقد أثار هذا المسار الكثير من النقاش ، فقد كان يتوجب الحديث عن بلاد الخزر قبل الحديث عن الروس لأنَّ الطريق إلى الروس يمرُّ أولاً بالخزر ، هل ضائع شيءٍ من المخطوطة ، كما يقول د. الدهان ، أمَّا ابن فضلان نفسه لم يكن مهتماً بأمر تسجيل شؤون الروس والخزر مثل اهتمامه بالصقالبة هدف رحلته ، وأنه وبالتالي سجل انتباعاته كييفما اتفق عن ذينك البلدين ، أمَّا مخطوطة مشهد نفسها تعاني من خلل منطقىٌ ما بسبب ناسخها أو تلف جزء منها . وإذا صحَّت هذه الفرضية ، فهل كانت النسخة التي وقعت بين يدي ياقوت تعانى هي أيضاً من الخلل نفسه؟ لا أظنَّ ، وفي يقيني فإنَّ ابن فضلان قد كتب المخطوطة بهذا الشكل الذي نعرفه ، مدرجاً انتباعات وقصص رأها أو سمعها في البلدين المعينين . ولم يزُر البتة البلدان الإسكندنافية كما يزعم الكاتب الهولنودي كريكتون ومثله د. غيبة وتابعهما بذلك ، على عجل لا يليق بالثقافة د. عبدالله إبراهيم ، ولو أنه فعل وزارها لنقل من نقل عنه شذرة صغيرة ، أعني ياقوت والقزويني ، خاصة الأخير المولع بالغرائب من كل نوع .

هجرة الأيدي العاملة تتبع مراكز الشروء:

إن صراعاً كاملاً كعلمة ضرورية ، وأن تناقضًا وجودياً نهائياً ، بين الأنما والأخر ، لم يكونا موجودين ، ثمة بدلاً منهما الكثير من الانفتاح ، وهذا الانفتاح بالأحرى هو

الصناعات الدقيقة كالإسفلات (مثل بسطولوس المذكور لدى ابن النديم) ، ناهيك عن المزخرفين والخطاطين (مثل ياقوت المستعصمي الرومي ، البيزنطي) . كانت هناك كذلك ، كما نعلم ، حاجة متزايدة للمترجمين ، ليس فحسب من ينقلون كتب الأم الأخرى إلى العربية ، ولكن من يقومون بدور السفراء الدبلوماسيين بين الإمبراطورية الإسلامية وما يجاورها من الدول . هكذا كانت تقاطر على العاصمة مختلف اللغات والتقاليد والشعوب ، وتقيم في بغداد بحثاً عن لقمة العيش . وهذا هو ما يفسِّر لنا عنصراً أساسياً من رحلة ابن فضلان التي تعنينا هنا ألا وهو

تشكُّلها من وفد يتكون من أربعة أشخاصٍ هم⁽²⁴⁾ :

1- سوسن الروسي الذي يبدو من نسبته الروسي أنه من بلاد الروس .

2- بارس الصقلابي ويحمل اسمه بوضوح على أنه سلافي .

3- تكين التركي : وهو تركيٌّ من دون شكٍ يجيد لغات الأتراك التي يمرُّ الوفد ببلادها في طريقه إلى الفولغا ، وكان يعمل حداداً في خوارزم .

4- أحمد بن فضلان الذي كان رئيساً للوفد وكان يجهل اللغات الأجنبية كما يقول هو نفسه ، إلا أنه لم يكن عربياً بالمرة فهو أحد المولى ، وربما كان من أصل فارسي . وكان مولى محمد بن سليمان بن المنقق أبو علي الكاتب الذي فتح مصر وشتَّت آل طلوبون ودخلها سنة 292 هـ وقتل سنة 304 هـ . على أنَّ كونه مولى لا يعني ، كما نرى ، أنه كان يتقن العربية لوحدها ، رغم تبعُّره بها ، ولعله كان يتقن لغة أجداده .

لا يبرز ابن فضلان كبطلٍ رئيسيٍّ⁽²⁵⁾ في الرحلة إلا لأنَّه كتب الرحلة ببساطة ، وهو لم يجُرْ طمس رفقة الآخرين لأي سبب متعَمَّد أو محسوب . العكس تماماً فلو رحلته لما عرفنا عن أولئك أئمة شذرة . إنَّ كتابته للرحلة ، في الغالب ، لم تتم لكي يبني لنفسه مجدًا أدبياً ، ولا لكي يعيد الاعتبار لنفسه كما يقول البعض ، خاصة وأنَّنا لا نعرف له مؤلِّفاً آخر غيرها . لقد كان سفيراً وحسب سجل لنا ملاحظات قيمة

(24) الملاحظات عن الأشخاص الأربعة مستقاة من د. الدهان .

(25) ملاحظاتنا التالية المتعلقة بشخص ابن فضلان و موقفه من رفقة هي وجهة نظر معايرة تماماً بعض

أنكار د. عبدالله إبراهيم بشأن الرجل ورحلته .

العلة الضرورية والمحرك الداخلي لأية حضارة في لحظات ازدهارها . وتعبر خير تعبير عن هذا الانفتاح مُردات المطبخ العباسى التي قلما تلتقي فيها بطبخ محلى تام الأصلة . لقد اختلطت مفردات المطبخ الهندية بالفارسية بالعربية أشد الاختلاط . الكل يأكل على مائدة الكل في المأدبة نفسها وإن بصعوبات حقيقة في بعض الحالات بالطبع . يتخذ البعض من هذه الصعوبات الطبيعية قاعدة لتفسير العلاقة بين الآنا والآخر بكثير من القتن .

سوى أن جماعات العالم القديم وثقافاته ، الأكثر والأقل تطوراً ، كانت تعاني من انكماسات على الذات لأسباب منها ضيق فسحة الاتصال وصعوبة المواصلات . لم تكن مشكلة الهوية بمعناها الراهن مطروحة (فكرة الهوية بمعناها هذا هي اختراع ثقافي معاصر) ، وربما كان شيء يشابهها يحضر لأسباب تتعلق بنظام القرابة ومواريث الأرض والنظام الاقتصادي لجماعة من الجماعات الساعية لتحقيق اكتفاء ذاتي . الآخر بعيد في الجغرافيا ، لذا فهو غامض ومحظوظ وسحري وموطن للخرافات . هذا النوع من إعلان (الغرابة) عن الآخر هو الذي كان مهيمنا ، وليس تلك التساؤلات ذات الطبيعة الفكرية المعقدة عن علاقة الآنا بالآخر . كلما ضرب الآخر في الأقصى والماهيل كلما تصاعدت وتيرة الحكايات غير الدقيقة عنه . هذا السبب البديهي لا صلة رحم له ، بالضرورة ، بمشكلات الأيديولوجيا : (دار الكفر) و(دار الإسلام) .

إن انفتاحاً مذهلاً ، يصل إلى درجة الاحترام للأخرين المختلفين كان يحكم علاقة دار الإسلام بالحضارات الوثنية العربية ، الهندية والصينية خاصة (وهو ما يشرحه د . عزيز العظمة في أحد كتبه «العرب والبرابرة») . الآنا في الحقيقة متعددة والآخر مدمج بها ، وهو ما تبرره طبيعة الوفد المُرافق لابن فضلان .

شاكر لعيبي

أبو ظبي 12 أيلول 2002

مسار الرحمة

بغداد
النهروان
الدستكرة
حلوان
قرميسين
همدان
ساوة

الري (قرب طهران اليوم)
خوار الري
سمنان
الدامغان
نيسابور
سرخس
مرزو
قشمغان
أمل

آفريير
 بيكند
 بخارا
 خوارزم
 الجرجانية
 جيت
 بلاد الصقالبة
 الروسية
 الخزر .

نَصْرُ الرَّحْمَةِ

قال أحمد بن فضلان :

لَا وَصَلَ كِتَابُ الْمَلِكِ بْنِ يَلْطَوَارِ⁽¹⁾ مَلِكِ الصَّقَالَبَةِ⁽²⁾

(1) في أصل مخطوطه (مشهد) الذي اشتغل عليه الدكتور سامي الدعาน نقرأ «الحسن بن بطوار» بالباء ، وفي أحدي أوراقها «المش بن شلكي صهر الأثراء» ، وعند باقتو الحموي الذي سيسعير مقاطع إضافية من الرحلة نقرأ «كتاب المس بن شلكي بطوار». ويرى بعض المستشرقين أن بطوار ربما كان فلاديير أي ملك القولاذ . أما الباحثون الذين ينقل عنهم د . دهان فبعضهم يرى أنه ألب بطوار ، وبطوار وبطمear . وقال فرمان إن من ملوك التتر ملك يسمى «أيدار» ، ويضيف أن ملك الروس على الفولغا كان اسمه ايکور Igore وقد صحفه العرب . وقال برتوند لأن لقب ملك البلغار بطاطون-Wal-dawac فأصبح ألب بطوار .

(2) الصقالبة : هم السلافيون وكانت عاصمتهم (بلغار) على نهر الفولغا الذي يجري في بلاد روسيا ويصب في بحر قزوين ، والعرب تسميه نهر (إقل) . وأثار مدينة بلغار توجد بالقرب من القرية المسماة بلغار سكوي ، وهي حوالي 115 كلم جنوب مدينة قازان على بعد 7 كلم من ضفة نهر الفولغا الشرقية . نقدم هنا ملخصاً تاريخياً لتاريخ السلاف حتى السنوات التي قام بها ابن فضلان برحابته سنة 921م : في نهاية القرن السابع الميلادي وصلت الهجرات السلافية إلى ضفاف الأدربياتيك . ويومها كانت الشعوب السلافية المختلفة المقسمة بين السلاف الشرقيين والслав الغربيين ==